ثانيا : الإسناد فى عصر الصحابة :

لقد عنى الصحابة بما جاء عن نبيهم عناية عظيمة لم يسبقهم فى ذلك أمة من الأمم ولم يرو التاريخ أن أمة نقلت سنة نبيها كما نقله الصحابة ، ولا غرابة فى ذلك فقد اختار الله تعالى الصحابة الكرام للنبى صلى الله عليه وسلم اختيارا يليق بحمل هذه الأمانة فحملوها وأدوها كاملة غير منقوصة ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم حريصين على حفظ سنة نبيهم ، ولقد بلغ من حرصهم على ذلك أن كان بعضهم يتناوبون مجلسه صلى الله عليه وسلم يوما بعد يوم، فها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحدثنا عنه البخارى بسنده المتصل يقول: " كنت وجار لى من الأنصار فى بنى أمية ابن يزيد من عوالى المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يوما وأنزل يوما، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره وإذا نزل فعل مثل ذلك . . . "(١)

ولقد كانوا رضى الله عنهم يحرصون أشد الحرص على نقل ما يهم الأمة وما يسعدها، فلم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا رووها عن النبى صلى الله عليه وسلم لم يدخلها النقص ولا الزيادة ، فكانوا قدوة للتابعين ولمن يأتى بعدهم إلى يوم القيامة حتى لا يدخل فى السنة ما ليس منها ، وبذلك وصلت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كالشمس فى رابعة النهار ، وهكذا نشطت الرواية فى عصر الصحابة وطوروها أوسع من ذى قبل .

---

(١) انظر صحيح البخارى (فتح البارى) ك العلم باب التناوب فى العلم ٢٧ (١/١٨٧) .

أ ـ تثبت الصحابة رضى الله عنهم :

لو درسنا سيرة الصحابة وبالأخص الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم، لرأينا أنهم قد اهتموا بالرواية اهتماما كبيرا محافظة منهم على السنة حتى لا يدخل فيها ماليس منها ، فقد ثبت عن أبى بكر الصديق وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم التثبت والتحرى عما يرد عن الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق أحد الصحابة، فهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يدقق ويتحرى فى رواية وردت عليه ، روى ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب أن الجدة جاءت إلى أبى بكر تلتمس أن تورث فقال: " ما أجد لك فى كتاب الله شيئا " ثم يسأل الناس فقام إليه المغيرة بن شعبة فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيها السدس ، فقال له الصديق : هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه لها أبو بكر . (١)

ومن هنا ظهرت شخصية أبى بكر الصديق صاحب رسول الله وخليفته ليوضح ويؤكد منهج النقد السليم حول السنة النبوية . (٢)

ويقول الحاكم عن أبى بكر الصديق: "إنه أول من وقى الكذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "، ثم يقول: " وهو أول من احتاط فى قبول الأخبار"، ويقول : " وإليه المنتهى فى التحرى فى القول والقبول ". (٣)

وكما ثبت عن عمر بن الخطاب اتباع هذا المنهج وتشدده فيه فقد رد خبر أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنهما ـ بقوله:" لئن لم تأتنى بمن يعلم هذا لأفعلن بك كذا وكذا ". (٤)

---

(١) انظر تذكرة الحفاظ (١ / ٤) .
(٢) انظر المدخل للحاكم (ص ٤٦) .
(٣) المرجع نفسه (٤٦) .
(٤) صحيح البخارى مع الفتح ك الاستئذان باب التسليم باب ١٢ (١١ / ٢٦) .

ثم يقول له بعد أن يأتيه بالشاهد: "أما إنى لم أتهمك ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم " . (١)

ومن مظاهر التثبت والتشدد فيه أن علي بن أبى طالب قد استحلف بعض الرواة فى الرواية . (٢)

وهكذا ثبت عن جمع من الصحابة التشدد فى التثبت والدقة فى الرواية، ومع ذلك لم يثبت أن أحدا من الصحابة رمى أخاه بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما كانوا يخشون أن يخطئوا فى نقل الحديث فلا يؤدونه على وجهه .

وأخرج ابن ماجه فى سننه عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال : قلنا لزيد بن أرقم حدِّثنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " كبرنا ونسينا والحديث عن رسول الله شديد ". (٣)

وقد روى عن كثير من الصحابة تشددهم فى الرواية وتحاشى التحديث كسعد بن مالك وابن عمر وأنس بن مالك والزبير وغيرهم خوفا منهم الوقوع فى الوعيد الذى أخبر به الصادق المصدوق ". (٤)

ومن هنا نشأ التشديد على من يروى الأحاديث التى لم يسمعوها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول البراء بن عازب رضى الله عنه : "ما كل حديث سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يحدثنا أصحابنا وكنا مشتغلين فى رعاية الإبل وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يطلبون ما يفوتهم سماعه من رسول الله فيسمعونه من أقرانهم ومن هو أحفظ منهم وكانوا يشددون على من يسمعون منه ". (٥)

---

(١) موطأ الإمام مالك (ص ٦٨٥) .
(٢) ابن ماجه إقامه ٣/١٥
(٣) مقدمة ابن ماجه (١ / ١١) باب ٣
(٤) انظر الكامل لابن عدى (ص ٣٩) و تأويل مختلف الحديث (ص ٤٠)
(٥) انظر معرفة علوم الحديث (ص ١٤) .

وما حديث عمر بن الخطاب إلا دليل واضح على التشديد في الرواية عندما شيع بعض الصحابة إلى خارج المدينة طالبا منهم تقليل الرواية خوفا منه التقول على رسول الله بما لم يقل . (١)

ب — موقفهم من الإكثار في الرواية :

ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : " إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة من الرواية، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثا ثم تلى (إن الذين يكتمون ما أنزلنا ...) إلى قوله (غفور رحيم)، إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق في الأسواق وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشبع بطنه ويحضر مالا يحضرون ويحفظ مالا يحفظون" (٢)

أما ابن عباس فكان يطلب الحديث عند كبار الصحابة ويتحمل في سبيل ذلك عناء ومشقة ، أخرج ابن عبد البر عن ابن شهاب أن ابن عباس قال : " كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فلو أشاء أن أرسل إليه حتى يجيئني فيحدثني فعلت ، ولكني كنت أنهب إليه فأقبل على بابه حتى يخرج فيحدثني ". (٣)

وهكذا كان ابن عباس يطلب الحديث من عند أقرانه الذين صحبوا الرسول صلى الله عليه وسلم قبله واستوعب ما عندهم فأخذ يحدث به قومه فكان يُعدّ من الصحابة الذين رووا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة .

كما يظهر منهج ابن عباس رضي الله عنهما من الرواية ما ذكرناه سابقا حيث كان يتشدد فيها بعد الفتنة كما فعل مع بشير العدوي ومع ابن أبي مليكة

---

(١) ابن ماجه (١/ ١٢) .
(٢) انظر صحيح البخاري مع الفتح (١/ ٤٠ — ٤١) ك العلم .
(٣) جامع بيان العلم (١/ ١١٢)

إضافة إلى هذا فإن أبا بكر الصديق وعمر رضى الله عنهما كانا ينهجان منهجا التثبت فى الرواية .

جـ ــ رواية الصحابة عن بعضهم :

لقد ثبت عن بعض الصحابة أنهم لم يسمعوا بعض الأحاديث عن نبيهم ولكنهم لم يتركوا الأمر بدون أخذه، بل سمعوه من أقرانهم ، يقول البراء بن عازب رضى الله عنه : " ولكن الناس لم يكونوا يكذبون يومئذ فيحدث الشاهد الغائب ".(١)

ويقول أنس رضى الله عنه : " ولكن كان يحدث بعضهم بعضا "(٢)

وبالنظر إلى أقوال الصحابة تجاه بعضهم فقد ثبت أنهم رووا أحاديث عن بعضهم البعض ، فقد روى مسلم بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطى عمر بن الخطاب رضى الله عنه العطاء فيقول له عمر : أعطه يارسول الله أفقر إليه منى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :"خذه فتموله أو تصدق به وماجاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ومالا فلا تتبعه نفسك ." .(٣)

وقد روى هذا الحديث أربعة من الصحابة كل منهم يروى عن الآخر وهم السائب بن يزيد عن حويطب بن عبد العزى عن عبد الله السعدى عن عمر بن الخطاب رضوان الله عليهم .

وهكذا رأينا أن كل واحد من هؤلاء الصحابة لم يكتف بذكر من سمعه منه ولم يرفعه من بعد عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما بيّن كل منهم كيف وصل إليه الحديث ".(٤)

---

(١) انظر المحدث الفاصل (ص ٢٣) .
(٢) الكفاية (ص ٣٨٦) .
(٣) انظر صحيح البخارى مع الفتح ك الأحكام باب رزق الحاكم العاملين (١٣/ ١٤٩ ــ ١٥٠) .
(٤) انظر توثيق السنة (ص ٣٧) والوسيط لابن شهبه (ص ٦٩٦) .

د ــ رواية الصحابة عن التابعين :

لقد روى بعض الصحابة بعض الأحاديث التى لم يسمعوها من أصحابهم عن بعض كبار التابعين الذين سمعوها من الصحابة،وهذا يدل دلالة واضحة أن الصحابة الكرام اهتموا بالرواية اهتماما بالغا ، ومن ذلك ما رواه سهل بن سعد الساعدى عن مروان بن الحكم عن زيد بن ثابت أن النبى صلى الله عليه وسلم أملى عليه " لا يستوى القاعدون من المؤمنين ... " الآية فجاء ابن أم مكتوم فقال:"يارسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت " وكان أعمى فأنزل الله (غير أولى الضرر) (١)

وكثير من هذه الروايات وردت عن بعض الصحابة يستدلون الرواية عمن أخذوها منه محافظة على السنة وإسناد القول إلى قائله .

هـ ــ الرحلة فى طلب الإسناد العالي :

لقد اهتم الصحابة الكرام بالرواية منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى ازداد الاهتمام بها أكثر خوفا عليها من أن يدخل فيها ماليس منها . وقد كانت الرحلة عندهم عاملا مهمًا فى البحث عن الرواية والتثبت عمن سمعها ، وبعد أن انتشر الصحابة فى البلاد الإسلامية وبعدت المسافة بينهم وبين إخوانهم فى المدينة وبدأ التشدد فى الرواية،كان بعض الأصحاب لا يكتفى بسماع تلك الرواية حتى يسمعها ممن سمعها من الرسول ولو رحل إلى الأمصار النائية كالشام ومصر وغيرهما . وذلك طلبا للإسناد العالى ثم التحرى منه والدقة فى التثبت فى هذا ، وكان بعض الصحابة من رحل فى طلب الحديث كأبى أيوب الأنصارى وجابر بن عبد الله رضى اللهعنهما وغيرهما . (٢)

(١) انظرتدريب الراوى (٢ / ٣٨٦ــ٣٨٩) .
(٢) انظرصحيح البخارى مع فتح البارى (١ / ١٧٤) ك العلم باب الخروج فى طلب العلم والرحلة فى طلب الحديث (ص ٥٣) .

فمن هذا كله نرى الصحابة الكرام نهجوا هذا المنهج ليكون قدوة لمن يأتي بعدهم من التابعين وغيرهم حتى قيام الساعة وحفظوا بذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وصلت إلينا بيضاء نقية لا غموض فيها ولا لبس .

يقول محمد عجاج الخطيب:" تلك آثار تبني منهج الصحابة في التثبت والتأكد من الأخبار وهذا لا يعني أبدا أن الصحابة اشترطوا بقبول الحديث أن يرويه راويان فأكثر أو أن يشهد الناس على الراوي أو أن يستحلف فإذا لم يحصل شيء من هذا، بل كان الصحابة يثبتون في قبول الأخبار ويتبعون الطريقة التي ترتاح إليها ضمائرهم ، فأحيانا يطلب عمر رضي الله عنه سماع آخر، وأحيانا يقبل الخبر من غير ذلك، ولا يقصد من وراء عمله إلا حمل المسلمين على حادة التثبت العلمي والتحفظ في دين الله وحتى لا يتقول أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم يقل، ويتضح هذا في قول عمر رضي الله عنه عن ما أرجع أبو موسى مع أبي سعيد رضي الله عنهما وشهد له ، قال عمر : " أما إني لم أتهمك "(١)

ومن خلال ذلك نصل إلى أن الإسناد كان موجودا منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام، ومن ثم نقلوا ذلك إلى الأجيال التالية لهم خالصا من الشوائب، وبذلك حفظوا لنا دين الإسلام .

---

(١) انظر السنة قبل التدوين (ص ٦٨) .

الفصـــل الأول

المبحـــث الثـــانى

شبهات المستشرقين حول نشأة الإسناد ومناقشتهـــا

المبحث الثـــانى
شبهات المستشرقين حول نشأة الإسناد ومناقشتهـــا

١ ـــ يقول كاتياني (١) :

" نستطيع أن نقول بعد مضي ستين سنة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ما بين (٧٠ ـــ ٨٠) فى عهد عبد الملك كـــان المحدثون لا يرون أنفسهم ملزمين بذكر مصادرهم ومعلوماتهم أى أنه بعد مضى جيلين من وفاة النبى لم يكن هناك ثمة إسناد" (٢).

٢ ـــ يقـول روبســـون (٣) :

" إننا نعلم أن ابن إسحاق فى النصف الأول من القرن الثـــانى أعطى أكثر معلوماته بدون إسناد وأكثر مابقي منه بدون إسناد كامل وأسلافه كانوا أقل اهتماما بالأسانيد منه لكنه لا يصح أن نقـــول

---

(١) كاتياني (Caetani. L.) (١٨٦٩ ـــ ١٩٢٦)
مستشرق إيطالي ، ولد فى روما وتخرج فى جامعتها ، وتعلم سبع لغات منها الفارسية والعربية .
من آثاره : " نمو الشخصية الإسلامية " و " تطور الحضارة وتاريخ الإسلام " من العام الأول إلى عام ٩٢٢
و " حوليات الإسلام " .
انظر : المستشرقون (١ / ٤٢٩ ـــ ٤٣٠) .

(٢) حـوليـــات الإســـلام (١ / ٨٠) .

(٣) روبسون جيمس (Robson, J.) (ولد سنة ١٨٨٠)
تخرج باللغات الشرقية فى جامعة جلاسجو ، حصل على الماجستير مع مرتبة الشرف من جامعة مانتشر وعلى الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة القديس أندروز .

===

إن الإسناد راجع إلى عهد الزهرى ولم يكن معلوما فى عصر عروة، بينما نظام الأسانيد البالغ إلى كامل نشوته أخذ وقتا طويلا ونما نموا بطيئا يمكن أن يصل إلى أن بعض الأسانيد راجع إلى القدم كما يدعيه الناس ". (١)

٣ — يقول كاتياني :

" إن المعلومات المتعلقة بابتداء مثل شباب النبى صلى الله عليه وسلم وابتداء الرسالة لا تروى من قبل شهود العيان وإنما تروى من قبل الأصحاب الذين لم يروا النبى صلى الله عليه وسلم فى أواخر سنواته وروايات الذين يدعى أنهم كانوا شهود العين لا تصعد إلى السنة الأولى ". (٢)

٤ — ويقول : " إذا تتبعنا الأسانيد وجعلنا إحصائيات تستخلص منها أن الأصحاب الذين صحبوا النبى صلى الله عليه وسلم قليلا هم الذين رووا عنه كثيرا ". (٣)

٥ — ويقول روبسون :

فى منتصف القرن الأول يمكن للمرء أن يتوقع شيئا يشبه الإسناد إذ كان قد مات عدد من الصحابة فى ذلك الوقت والذين لم يروا النبى صلى الله عليه وسلم بدأوا يقصون عنه، ومن الطبيعى أن يسألهم أحد

=== عين مساعد أستاذ اللغة العبرية فى جامعة جلاسجو (١٩١٥-١٩١٦) واختير معيد اللإنجليزية فى لاهور (١٩١٨—١٩١٩) وأستاذ للعربية فى جامعة مانتشستر .

من آثاره : "عيون شبه الجزيرة العربيه" و" المسيح فى الإسلام" و" الإسناد فى الحديث عند المسلمين " .

انظر : المستشرقون (٢ / ١٢٤ — ١٢٥) .

(١) Robson,J.: The Isnad in Muslim Tradition, p.26

(٢) حوليات الإسلام (١/ ٨٥)

(٣) المرجع السابق (١/ ٩٥)

عن مصادرهم أو معلوماتهم مالم تكن مباشرة حيث لم يروا النـــــبى صلى الله عليه وسلم . (١)

٦ — ويقول كايتاني :

" إن أول من استعمل الإسناد هو ابن إسحاق وإن لم يكن على صورته الكاملة التى اتخذه بها المحدثون بعد ذلك ". (٢)

خلاصة شبهات المستشرقين حول نشأة الإسناد :

بعد أن نظرت إلى شبهات المستشرقين حول نشأة الإسناد رأيت أن أقوالهم قد اختلفت فى ذلك، وقد قاموا بدراسة السنة النبوية ليستشفوا أمورا تجعلهم يصلون إلى أمر لعل فى ظنهم أنه خفى على المسلمين البحث فيه والدراسة حوله، فكانت دراستهم منصبة على الحديث النبوى سنداومتنا، فتعرضوا له وأعملوا فيه اجتهاداتهم واستنبطوا من تلك الدراسة أن المسلمين الأوائل لم يسلكوا منهج النقد المترتب على السند والمتن، بل ردوا ذلك إلى القرون المتأخرة، ومن ذلك رأيت شبهاتهم حول إسناد الحديث مختلفة بل وساقطة، فبالنظر إلى هذه الشبهات يمكن إجمالها فى النقاط التالية :

١ — أن الإسناد بدأ فى النصف الأول من القرن الأول . (٣)

٢ — أن الإسناد بدأ فى الثلث الثالث من القرن الأول . (٤)

٣ — أن الإسناد بدأ فى القرن الثانى أو الثالث . (٥)

---

(١) Robson, J.: The Isnad in Muslim Tradition, p.21

(٢) حوليات الإسلام لكايتاني (١ / ٧٥) باللغة التركية ترجمة د/ أحمد سعاد .

(٣) حوليات الإسلام لكيتاني (١ / ٩٥ — ١٠٠)

Robson, J.: The Isnad in Muslim Tradition, p.21.

(٤) المرجع السابق .

(٥) حوليات الإسلام (١ / ٧٥)

Robson, J.: The Isnad in Muslim Tradition, p.26.

مناقشة شبهات المستشرقين :

الشبهة الأولى : (وهى : أن الإسناد بدأ فى النصف الأول من القرن الأول)

هذا الزعم يرده التاريخ الصحيح لنشأة الإسناد،وذلك أن الإسناد لم تكن بدايته فى هذه الفترة التى حددها بعض المستشرقين وإنما كان بدايته مع بداية الرواية .

وبالرجوع إلى المبحث السابق،نرى فيه اهتمام الصحابة بالإسناد وأنه لم يبدأ فى هذه الفترة كما ادعاه هؤلاء المستشرقون،وإنما بدأ استعماله فى العصر النبوى وعصر كبار الصحابة،فهذه بعض الآثار الواردة عنهم تدلنا على أن الإسناد لم يكن استعماله متأخرا وإنما طبق منذ نزول الوحى، ومن هذه الآثار الثابتة عن منهج الصحابة حول ذلك نقول :

إن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب قد نهجا منهجا عظيما لمعرفة الإسناد والتثبت والتدقيق منه،ومن ذلك " أن الجدة جاءت إلى أبى بكر تسأله ميراثها ، فقال : مالك فى كتاب الله شيء وما علمت لك فى سنة نبى الله شيئا،فارجعى حتى أسأل الناس،فقال المغيرة بن شعبة:حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاها السدس . فقال أبو بكر:هل معك غيرك ؟ فقام محمد بن مسلمة فقال مثل ما قال المغيرة بن شعبة فأنفذه أبو بكر".(١)

كما روى عن عمر كذلك حول حديث الاستئذان الذى رواه أبوموسى الأشعرى .(٢)

وروى عن عبدالله بن الزبير أنه قال لأبيه : "إنى لا أسمعك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يحدث فلان وفلان

---

(١) انظر سنن أبى داود (٣/ ٣١٧) وسنن الترمذى (٤/ ٤٢٠) .

(٢) انظر صحيح البخارى مع الفتح ك الاستئذان باب التسليم (١١/ ٢٦)

فقال : أما إنى لم أفارقه ولكن سمعته يقول : " من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار " . (١)

ويروى ابن ماجه فى سننه

" أن زيد بن أرقم كان يقال له حدِّثنا فيقول: " كبرنا ونسينا ، والحديث عن رسول الله شديد ". (٢)

وكان أنس بن مالك يتبع الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : " أو كما قال، حذرا من الوقوع فى الكذب عليه " (٣)

فهذا المنهج الأساسى الذى اعتمد عليه الصحابة فى الرواية والتثبت فيها والعناية بها حتى يكون قدوة لمن يأت بعدهم ويسلك سبيلهم .

ولو نظرنا إلى هذه الآثار التى ذكرتها لرأينا أن الصحابة قد بينوا ألفاظ الرواية، فبعضهم يقول : سمعت ، وبعضهم يقول : حدثنى والبعض الآخر يقول : قال رسول الله . وكلها ألفاظ تدل على الوجوب، وهى كذلك دالة على نشأة الإسناد فى عصر النبوة وعصرهم ، ولذلك يقول الدكتور محمد الأعظمى " إن الإسناد كان موجودا قبل وقوع الفتنة إلا أن الناس ما كانوا يحتاجون إليه كثيرا، وما كانوا يدفعون فى الموضوع وكان الأمر متروكا للراوى نفسه إذا أحب أن يسند أسنده، وإذا أحب أن يحذف الإسناد حذف، فلما وقعت الفتنة تنبه الناس إلى أهمية الإسناد لئلا يقوم أحد بوضع الأحاديث على لسان النبى صلى الله عليه وسلم فى الأمور السياسية " (٤).

---

(١) انظر المرجع السابق ك العلم باب اثم من كذب على النبى (١/٢٠٠)

(٢) انظر ابن ماجه ، باب التوقى فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رقم ٢٥ (١/١١) .

(٣) انظر المرجع السابق (ص ١١) .

(٤) انظر دراسات فى الحديث النبوى لمحمد الأعظمى (ص ٣٩٧) .

فهذه الآثار الثابتة عن بعض الصحابة وغيرهم كعمران بن حصين والبراء بن عازب وعبد الله بن مسعود والذين طبقوا الإسناد في عصر كبارهم وصغارهم رأيت أن زعم المستشرقين حول تأخر الإسناد خاطئ ،لأن الإسناد نشأ منذ عصر النبوة والصحابة استنادا للأدلة السابقة التي وردت عن الصحابة الكرام .

الشبهة الثانية : (القول بأن الإسناد نشأ في الثلث الثالث من القرن الأول)

والجواب عن الشبهة الأولى جواب عن هذه الشبهة ، ونضيف إلى ذلك أن المستشرقين يتجاهلون عناية الصحابة وكبار التابعين حول الإسناد، وربما استندوا في هذا الزعم على الخلافات السياسية التي حدثت في أواخر القرن الأول بين ابن الزبير وعبد الملك بن مروان،ولكن مع هذا فإن الصحابة قد وقفوا تجاه الاهتمام بالإسناد منذ عصر الفتنة وما بعدها،ولا يقبلون الإسناد إلا بتسمية من روى ذلك ، وبالرجوع إلى عصر صغار الصحابة وكبار التابعين نرى أنهم حافظوا على الإسناد محافظة كبيرة وذلك خوفا من الوقوع في النار كما أخبر بذلك رسولنا صلى الله عليه وسلم ، ويدل على تلك المحافظة ما رواه مسلم في مقدمته أن بشير العدوي جاء إلى ابن عباس رضي الله عنهما فجعل يحدث ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا،فجعل ابن عباس رضي الله عنهما لا يأذن بحديثه ولا ينظر إليه فقال: يا ابن عباس مالي أراك لا تسمع لحديثي ؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلا يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا،فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف.(١)

(١) مقدمة صحيح مسلم(١ / ٨٠-٨١) باب النهي عن الرواية عن الضعفاء .

فهذا الأثر يدل على أن الصحابة لم يكونوا بعيدين عن استعمال الأسانيد، بل كانوا يدققون ويتثبتون فيه ، فموقف ابن عباس يبين لنا أن الاهتمام بالإسناد بدأ في أواخر عصر الصحابة حيث أنهم كانوا يقبلون الإسناد دون تردد ، لأن الناس في الفترة السابقة أي قبل الفتنة على جانب كبير من الصدق والأمانة والبعد عن الكذب — أما بعد الفتنة فقد دخل في الإسلام تستر قوم يريدون الطعن في الإسلام والنيل منه حتى كان صغار الصحابة وكبار التابعين — لهم بالمرصاد .

كما يدل على استعمال الصحابة الإسناد ما أخبر به البراء بن عازب رضي الله عنه " ما كل ما نحدثكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعناه منه ومنه ماسمعناه منه ومنه ماحدثنا به أصحابنا ونحن لا نكذب ."(١)

فهذه الآثار تدل على أن الصحابة وقفوا على حذر في شأن الحديث، كما أنهم تثبتوا في أمر الحديث وسنده حيث وزنوا الراوي والمروي بميزان النقد العلمي الصحيح .

كما أن هذه الفترة التي ادعى المستشرقون نشأة الإسناد فيها كان فترة تشدد الصحابة في الأسانيد، ويظهر هذا في الأثر الذي ذكره ابن سيرين " لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم ".(٢)

فأرجع ابن سيرين الإسناد إلى عصر الصحابة بالضمير الغائب، فلو استعمل ضمير المتكلم لكان دالا على وجود الإسناد في زمنه لأنه عاش في هذه الفترة التي ذكرها المستشرقون .

---

(١) انظر الكامل لابن عدي (١ / ٥٥) .

(٢) مقدمة الإمام مسلم (١ / ٨٤) باب بيان أن الإسناد من الدين .

كما أن ابن أبى مليكة قد كتب إلى ابن عباس فيقول " كتبت إلى ابن عباس أسأله أن يكتب لى كتابا ويخفى عنى فقال: ولد ناصح ، أنا أختار له الأمور اختيارا وأخفى عنه، قال فدعا بقضاء علي فجعل يكتب منه أشياء ويمر بالشيء فيقول ؛ والله ما قضى بهذا على إلا أن يكون قد ضل"(١)

فهذان الأثران دليلان على أن الصحابة كانوا فى هذه الفترة يقاومون بعض الفرق كالشيعة والخوارج، ولم تكن هذه الفترة بداية نشأة الإسناد بل كان بداية التشدد فيه أكثر من ذى قبل ، فالمستشرقون يصدرون مزاعمهم بناء على الأحكام العقلية المبنية فى أذهانهم بغض النظر عن جهود الصحابة ومقاومة صغارهم لبعض الفرق المنحرفة ، وبالرجوع إلى الآثار السابقة نرى أن الإسناد بدأ فى عصر النبوة والصحابة، والذى ظهر لنا ذلك من خلال تشددهم وتثبتهم ودقتهم فى الرواية حتى سلموها إلى تلامذتهم من كبار التابعين منتهجين فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم " بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ".(٢)

وقوله صلى الله عليه وسلم " ليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه " .(٣)

يقول أبو شهبة حول تثبت الصحابة فى الرواية: " ولم تكن مراجعة بعض الخلفاء وغيرهم لبعض الصحابة وطلبهم راويا أو استحلافهم عند الرواية طعنا فى عدالتهم ولا تكذيبا لهم كما هدف به بعض أعداء الإسلام الحاقد على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن ذلك كان على سبيل التحوط

---

(١) المرجع السابق (١/ ٨٢، ٨٣) باب النهى عن الرواية عن الضعفاء
(٢) رواه البخارى (٦/ ٤٥٦) ك الأنبياء ، باب ماذكر عن بنى إسرائيل
(٣) المرجع السابق (٨/ ٨٣) ك العلم باب ليبلغ العلم المشاهد الغائب ٣٧ (١/ ١٩٧).

للرواية والتثبت من المرويات ولتكن سنة متبعة لمن يأتى بعدهم،وليس أدل على هذا من قول الفاروق — وهو من هو فى الجهر بالحق وعدم المداهنة لسيدنا أبى موسى الأشعرى " إن كنت لأمينا على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنى أردت أن أستثبت " فكيف يتقول متقول بعد هذا!(١).

الشبهة الثالثة : (وهو أن الإسناد بدأ فى القرن الثانى أو الثالث)

هذا الزعم أيضا خطأ بناء على ماذكرته من بعض الآثار السابقة فى الشبهتين السابقتين ، لأن هذه الفترة لم يكن نشأة الإسناد فيها وإنما فترة تفشي الوضع فى أنحاء الأقطار الإسلامية،والتى فيها قاوم التابعون الوضع والوضاعين وبينوا زيفهم وطلبوا الإسناد من الصحابة أنفسهم دون الأخذ عن الكذابين كما أنهم سألوا عن الإسناد وتتبعوه حتى بلوغه النبى صلى الله عليه وسلم كما ثبت فى الحديث الذى ذكره ابن المبارك"(٢).

لقد كان رائد هذه الدعوى البروفيسور شاخت استنباطا منه عند دراسته للمذاهب الفقهيه فأرجع نشأة الإسناد إلى هذه الفترة .

فشاخت أخطأ فى زعمه هذا حول نشأة الإسناد وقد رد عليه الدكتور محمد الأعظمى فنكتفى بالإحالة عليه "(٣).

أما كاتبانى، فهو يعتمد فى قوله على بعض أصحاب السير وهذا خطأ أيضا،لأن الإسناد كما عبر عنه نسب الحديث فلا يقبل أصحاب الحديث الأخذ من الكتب غير المتخصصة فى الحديث .

---

(١) الوسيط (ص ٦٣) .

(٢) مقدمة الإمام مسلم (١ / ٨٨—٨٩) كشف معايب الرواة .

(٣) دراسات فى الحديث النبوى للدكتور محمد الأعظمى (ص ٣٩٧) وما بعدها ، وقد أصدر الأعظمى كتابا مستقلا فى الرد على شاخت فى إنكاره للسنة .

إضافة إلى أن الوضع قد انتشر فى هذه الفترة،حيث ظهرت الفرق السياسية وغيرها وأخذ العلماء يهتمون به ويثبتون فيه حتى يصلوا بذلك إلى منتهاه،وهذا هو المنهج الذى سلكه المحدثون فىالعصور الثلاثة الأولى .

ولهذا يقول أبو حاتم:" وفرسان هذا العلم حفظوا على المسلمين الدين وهدوهم إلى الصراط المستقيم الذين آثروا قطع المفاوز والفقار على التنعم فى الديار والأوطان فى طلب السنن فى الأمصار وجمعها بالوصل والأسفار والدوران فى جميع الأقطار حتى أن أحدهم ليرحل فى الحديث الواحد الفراسخ البعيدة فى الكلمة الواحدة الأيام الكثيرة لئلا يدخل فضل فى السنن شيئا يضل به وإذا فعل فهم الذابون عن رسول الله صلى الله عليهوسلم ذلك الكذب والقائمون بنصرة الدين ".(١)

ويقول نور الدين عتر:" من هذا تقر للناظر حقيقة لها أهميتها وهي أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ترجع إليهم الفضل فى بدء علم الرواية للحديث ذلك،لأن الحديث النبوى فى حياة المصطفى كان علما يسمع ويتلقف سنة صلى الله عليه وسلم، فلما لحق بالرفيق الأعلى حدث عنه الصحابة بما وعته صدورهم الحافظة ورووه للناس بعناية الحرص والعناية فصار الحديث علما يروى وينقل ووجد بذلك علم الحديث رواية .(٢)

وبهذا كله يبين لنا أن الإسناد قد نشأ فى عصر النبوةوالصحابة بناء على الآثار الواردة عنهم وعن أتباعهم .

---

(١) المجروحين (١ / ٢٧) .

(٢) منهج النقد فى علوم الحديث (ص ٢٥ — ٢٦) .

الفصل الأول

المبحث الثالث

موقف المستشرقين من الفتنة ودراسة شبهاتهم فى ذلك وعلاقتها بالإسناد

المبحث الثالث

موقف المستشرقين من الفتنة ودراسة شبهاتهم فى ذلك وعلاقتها بالإسناد

الفتنة وعلاقتها بالإسناد :

استمر عصر النبوة والجزء الأعظم من عصر الصحابة صافيا لم يتعلق بهما أدنى شائبة مما يؤثر على الإسناد فى الحديث الشريف حتى العقد الرابع ، وقد كان الصحابة يروون الحديث لبعضهم البعض ويؤدونه كما سمعوه ويعارض بعضهم لما يرى من مخالفة الحديث اجتهادا، مثل تنفيذ جيش أسامة والمسلمون بحاجة إليه ، ومحاربة المرتدين .

يقول السباعى : " مثل هذه الأخبار ومئات أمثالها قد استفاضت بها كتب التاريخ وهى تدل دلالة قاطعة على أن الصحابة كانوا من الجرأة فى الحق والتفانى عما يعتقدون أنه حق ، ومن تغليبهم الحق على كل صديق وصاحب وقريب بحيث يستحيل عليهم أن يكذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم اتباعا للهوى ، أو رغبة فى دنيا ، إذ لا يكذب إلا الجبان،كما يستحيل أن يسكتوا عمن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين لا يسكتون عن اجتهاد خاطئ يذهب إليه بعضهم بعد فكر وإمعان ونظر " . (١)

وهكذا استمرت هذه الفترة خالية من طائلة الجعل والتفرقةوالتخرب حتى عام (٣٥ هـ)، العام الذى اضطرب فيه أمر الأمة ودخل فى الإسلام من لا يمت إليه بصلة من يهود وأعاجم بغية الدس والتفرقة فى كيان الأمة الإسلامية،وانتهى الأمر باستشهاد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه .

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى (ص ٣٦) .

فهذه أول فتنة وقعت فى صدر القرن الأول والتى كان لها أبلغ الأثر عند المسلمين قاطبة وخاصة كبار الصحابة وصغارهم حيث وقفوا لها بالمرصاد حتى لا تدخل هؤلاء فى الإسلام بعضا من التشكيكات والتحريفات الذى هى الهدف الأول لهم،لكى يصلوا إلى تفرقة أمر الأمة والنيل منها .

لذا فإننى سأنطلق فى هذا المبحث إلى تعريف الفتنة وبيان علاقتها بالإسناد . ومن ثم أناقش شبهات المستشرقين حول الفتنة والتى أطلقها ابن سيرين فى مقولته حول الإسناد: فلما وقعت الفتنة

أما تعريف الفتنة فى اللغة : فتأتى بمعنى التحول والامتحان والاختبار،ثم استعملت فى كل أمر يكشفه الامتحان،ويطلق على الكفر والغلو فى التأويل البعيد،وعلى الفضيحة والبلية والعذاب والقتال والتحول من الحسن إلى القبيح والميل إلى الشىء بالإعجاب وتكون فى الخير والشر.

وإنما قد تكون مما ينشأ عن الاختلاف فى طلب الملك حيث لا نعلم المحق من المبطل .(١)

وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى أنه سيكون فتن بعد وفاته،ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " ستكون فتن القاعد منها خير من القائم"(٢)

وقوله عليه الصلاة والسلام : " فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين " .(٣)

ويقول حذيفة بن اليمان ــ رضى الله عنه ــ :" إن الفتنة قتل عثمان وآخر الفتن خروج الدجال ".(٤)

---

(١) انظر فتح البارى ك مواقيت الصلاة .
(٢) صحيح البخارى فتح البارى (١٣ / ٢٩) باب الفتن .
(٣) الترمذى (٢ / ٤٤) رقم الحديث ٢٦٧٦
(٤) انظر تاريخ أصفهان لابى نعيم (١ / ١٣٦) .

ويروى أبو نعيم بسنده عن نافع عن ابن عمر أنه قال : " لم يقص في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبي بكر وعمر ، وإنما كان القصص زمن الفتنة ".(١)

فالواقع أن الفتنة لم تكن في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وإنما ظهرت في عصر عثمان رضي الله عنه والتي بدأت في تلك الفترة المؤمرات عليه وعلى عامة المسلمين من قبل الدخلاء على الدين الإسلامي التي انتهت بمقتل عثمان .(٢)

كما ورد أثر يدلنا أن الفتنة المقصود بها هي فتنة عثمان رضي الله عنه، وهو ما رواه البخاري عن سعيد بن المسيب أنه قال : " وقعت الفتنة الأولى — وهي مقتل عثمان — فلم تبق من أصحاب بدر أحدا ، ثم وقعت الفتنة الثانية — يعني الحرة — فلم تبق من أصحاب الحديبية أحدا ، ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طباخ ".(٣)

ويذكر ابن حجر " أن سعد بن أبي وقاص كان آخر بدري مات ومات قبل موقعة الحرة ببضع سنين ، فيعني ذلك أن الفتنة الأولى المراد منها ما يستغرق ما بين الفتنتين ".(٤)

ثم يفسر لنا ابن سيرين الفتنة فيروى عنه أنه قال : " هاجت الفتنة، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف فما خف لها منهم مئة ".(٥)

---

(١) تاريخ خليفة (ص ١٦٢) .

(٢) انظر بحوث في تاريخ السنة (ص ٤٩) وما بعدها ، دراسات في الحديث النبوي (ص ٣٩٥) ودراسات في الجرح والتعديل (ص ٦) والوضع في المحدث (ص ١٠) .

(٣) صحيح البخاري فتح الباري (٧ / ٣٢٣) ك المغازي باب شهود الملائكة بدرا .

(٤) انظر فتح الباري (٧ / ٣٢٥) .

(٥) المنتقى في منهاج الاعتدال (ص ٣٨٩) .

فهذه النصوص وأمثالها تدل أن الفتن بدأت بمقتل عثمان ثم تبعها فتن أخر كفتنة الحرة وفتنة على ومعاوية رضى الله عنهما، ولكن السؤال عن الإسناد والاهتمام به كان منذ الفتنة الأولى، لأن أصحاب الأهواء والفساد دخلوا فى الإسلام تسترا لكي يفسدوا على الأمة دينهم، مع أن الغالب فى هذا العصر الصلاح ، فليس زمن يأتى إلا والذى بعده أشرّمنه.

أما فتنة على ومعاوية رضى الله عنهما فكان أثرها على الأمة الإسلامية عظيما، حيث إن النزاع كان بين الصحابة أنفسهم بسبب الدخول فى الإسلام ممن لا يمت إليه بصلة لغرض الإفساد وتفرقة أمر الأمة الإسلامية، وقد نتج على إثر هذه الفتنة بعض الفرق المنحرفة عن جادة الطريق — الشيعة والخوارج — فأخذوا فى التشكيك فى الدين، وبخاصة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الصحابة لهم بالمرصاد ، وقد انتهت هذه الفتنة باستشهاد الإمام علي كرم الله وجهه وجمع غفير من الصحابة، وها نحن نجنى ثمار تلك الفتنة حتى اليوم حيث أن الفتن اللاحقة لم يكن تأثيرها كتأثير الفتن السابقة .

ومن خلال ذلك زاد الاهتمام بالإسناد تدريجيا لأهميته و لصيانة السنن والأحاديث من الدسائس ، وقد كثر السؤال عن الإسناد بعد الفتنة الأولى، لأنه فى تلك الفترة كان يعيش كثير من الصحابة، فسرعان ما كان الحديث يرد على صاحبه إن هو أخطأ فيه، مع أن هذا المنهج كان موجودا قبل الفتنة لكن بعد الفتنة ازداد ، إضافة إلى أن الصحابة وكبار التابعين كانوا يرحلون لطلب الحديث ممن سمعه من الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة، كجابر بن عبد الله رحل إلى . . . وأبى أيوب الأنصارى وسعيد بن المسيب وغيرهم .

يقول الدكتور محمد مصطفى الأعظمى : " إن الإسناد كان موجودا قبل وقوع هذه الفتنة،لأن الناس كانوا يحتاجون إليه كثيرا ، وماكانوا يدققون فى الموضوع ، وكان الأمر متروكا للراوى نفسه إذا أحب أن يسند سند، وإذا أحب أن يحذف الإسناد حذفه ، فلما وقعت الفتنة تنبه الناس إلى أهمية الإسناد لئلا يقوم أحد بوضع الأحاديث على لسان النبى صلى الله عليه وسلم فى الأمور السياسية ".(١)

ويقول د / أكرم ضياء العمرى : " ذهب الباحثون إلى أن الإسناد بدأ عقب قيام الفتنة مستندين إلى قول ابن سيرين ، وقد بدأ الاهتمام بالإسناد والسؤال عنه فى فترة مبكرة،وذلك فى أعقاب الفتنة التى بدأت من خلافة عثمان رضى الله عنه وأدت إلى التمزق والانغلاق الضخم فى كيان المجتمع الإسلامى وظهور الأهواء السياسية المتعارضة والآراء المتعصبة المتدافقة مما أدى إلى ظهور الوضع وبروز الانشقاقات عن الجماعة .(٢)

ونحن لا نتفق مع ما ذكره د / أكرم العمرى من أن الباحثين ذهبوا إلى أن هذه بداية الإسناد ، لأن هذا يتعارض مع ما ذكرته آنفا ، ومع الواقع التاريخى الثابت من خلال واقع كتب السنة فى الرواية بالسند المتصل، ومع ذلك فنحن لا ندرى من هم هؤلاء الباحثون الذين يشير إليهم .

أما فتنة عبدالله بن الزبير فلم يطلق عليها فى التاريخ الإسلامى بلفظ الفتنة،حيث تولى عبدالله بن الزبير إمارة الحجاز سنة (٦٤ هـ) حتى (٧٢ هـ)(٣) حيث وقع الصدام بينه وبين جيش عبدالملك الذى حاصر كله واستشهد ابن الزبير بعد الحصار وهذه الفتنة لم تكن لها شهرة كسابقتها بل كانت أقل شأنا منها،ولم يحصل بواسطتها تفريق الأمة

---

(١) دراسات فى الحديث النبوى (ص٩٧ ٣) .
(٢) انظر بحوث فى تاريخ السنة المشرفة (ص ٤٨ — ٥٠) .
(٣) البداية و النهاية (٣٢٩/٨)

وإبعاد المسلمين عن دينهم،حيث إن عبدالله بن الزبير قام بهذه الحركة المناهضة الحكم الأموى، لأنه رأى مع جمع من الصحابة أن خلفاء بني أمية قد سلكوا طريقا مخالفا لمنهج الخلفاء الراشدين،فأراد أن يغير تلك الحال مع موافقة بعض الصحابة له،فلو كانت حركته مخالفة للشرع لتركه أصحابه وابتعدوا عنه وانحازوا إلى الدولة الأموية .

وبالنظر لصلاح ابن الزبير فهو من خيار الصحابة وممن عدلهم الله ورسوله،فكيف يتسنى له تفرقة المسلمين وإحداث النزاع بينهم .

وقد حدثت حركة عبدالله بن الزبير فى أواخر القرن الأول الذى كثر فيه الفرق والأحزاب السياسية .

أما فتنة الخليفة الأموى الوليد بن يزيد (١٢٦هـ) فلم تكن أيضا فتنة فى ذاتها ، بل كان انحرافا شخصيا من قبل بعض الخلفاء ، وهذا يدل على دنو أهل البيت الأموى وتصدعه ، وقد كانت هذه الحادثة فى أواخر الدولة الأموية وكانت من العناصر السياسية لسقوطها وتشتتها .

فالوليد كان رجلا زنديقا كما يسميه بعض المؤرخين،فقد كانت حياته قبل الخلافة فى الصحراء،حيث طرده بعض الخلفاء وذلك لتماديه فى اللهو، ولما توفى سلفه عاد إلى دمشق يطلب الخلافة واستمر فى الحكم قرابة السنة وبضعة أشهر.كان موقف العلماء فى تلك الفترة جازما، وانتهى الأمر بمقتله من قبل الغيورين لدين الله وبذلك انتهت فترة خلافته .(١)

فهاتان الفتنتان لم يكن لهما أدنى ارتباط بالإسناد،ولم يكن الإسناد من اختصاص الأمراء والخلفاء ، بل كان من اختصاص نقاد الأمة

---

(١) انظر البداية والنهاية (١٠ / ٦) وما بعدها .

وعلمائها الذين دافعوا عن السنة بكل ما أوتوا من قوة بعد أن هيأهم لهذا الأمر .

أضف إلى هذا أن الفتنتين المذكورتين لم تكونا مشهورتين كسابقتهما؛ بل اشتهر أمرهما من قبل المستشرقين الذين يرددونها على ألسنتهم؛ لأنهم قاصرون عن فهم اللغة العربية ، فكيف لنا أن نقبل قولهم ، وندع قول نقاد الأمة وعلمائها وأهل التخصيص فيها والذين بينوا لنا زيادة الاهتمام بالإسناد في بداية أول فتنة وقعت في تاريخ الإسلام، وكان لها طابع استهداف الحديث النبوى بالمكر والكيد .

فبالمقارنة بين الفتنتين السابقتين الواقعتين في العقد الرابع والفتنتين المتأخرتين عنهما؛ أرى أن المقصود بالفتنة هما الفتنة التي وقعت في عهد عثمان والفتنة التي وقعت بين علي ومعاوية رضى الله عنهم أجمعين .

اختلاف المستشرقين وبعض شبهاتهم حول الاهتمام بالإسناد والسؤال عنه :

يقول " شاخت " (١)

" إن الفتنة التى بدأت بمقتل الوليد بن يزيد (١٢٦ هـ) على مقربة من نهاية الدولة الأموية كانت تاريخا مصطلحا عليه لاعتباره نهاية الأيام الجميلة القديمة فى العصر التى كانت سنة النبى صلى الله عليه وسلم فيها غالية ، وبما أن تاريخ وفاة ابن سيرين (١١٠ هـ) ، لذلك لابد أن نعتبر أن نسبة هذا الكلام إلى ابن سيرين غير صحيح والأثر موضوع ، وعلى كل حال فليس هناك ما يدعو إلى أن نقبل أن بداية الإسناد تسبق وجودها بداية القرن الثانى ". (٢)

---

(١) شاخت جوزيف (Schacht, J.)
مستشرق ألمانى متعصب ضد الإسلام والمسلمين ، تخرج فى جامعتى برسلاو وليبزنج .
عين أستاذا فى جامعة فرايبورج وفى جامعة لونسبرج ، وفى الجامعة المصرية ، ومحاضرا للدراسات الإسلامية فى جامعة أكسفورد ، وأستاذا للأحداث العلمية فى جامعة الجزائر ، وأستاذا فى جامعة ليدن ، وانتخب عضوا فى مجامع منها المجمع العلمى العربى بدمشق .
من محررى " دائرة المعارف الإسلامية " .
من آثاره : " أصول الفقه الإسلامى " . وله دراسات نشرها فى المجلات العالمية ودائرة المعارف الإسلامية وغيرها .
انظر : المستشرقون (٢ / ٤٦٩ — ٤٧١) والاستشراق والمستشرقون (ص ٣٨) .

(٢) Schacht, J.: The Origins, p. 136 - 137

يقول " روبسون "

" إن المراد بالفتنة فتنة ابن الزبير (٧٢ هـ) وهـذا يوافق عمر ابن سيرين أو نصا أورده الإمام مالك فى الموطأ (كتاب الحج ٤٩) حيث أطلق كلمة الفتنة على خروج ابن الزبير على بنى أمية ، وقد وافق روبسون بهذا الرأى هوروفيتش " . (١)

(٢)
يقول " وات " :

" أخذت فئة قليلة من الأشخاص منذ نهاية القرن الأول الإسلامى بجمع كل الأخبار التى تستطيع جمعها عن حياة محمد و مغازيه ثم كتب بعضهم ما جمعوه، ومنها بدأ أن هؤلاء الجامعين الأوائل للأخبار قد محصوا مصادرهم بعناية، فإنهم لم يذكروا فى جميع الحالات الإسناد الكامل أو سلسلة الرواة التى تعود بنا القهقرى إلى الشاهد العيان للحوادث ثم أصبح الإسناد الكامل شيئا نسبيا ضروريا . (٣)

---

(١) هوروروفيتش ، جوزيف (Horovitz, J.)
مستشرق يهودى ألمانى ، عين مدرس فى جامعة برلين (١٩٠٢)
أستاذ العربية فى جامعة عليجرة بالهند (١٩٠٧—١٩١٤ م)
وقد تخرج عليه فيها كثير من الفقهاء والعلماء ، وكان متخصصا بالإسلام فى الهند ، وخبيرا بخطوطه لدى الحكومة .
ثم انتقل إلى جامعة فرانكفورت (١٩١٥—١٩٣١) حيث عد من أشهر أساتذتها .
من آثاره : " الشيعة " و " الزكاة " و " الإسناد " .
انظر : المستشرقون (٢ / ٤٣٢ — ٤٣٣) ، وموسوعة المستشرقين د / عبدالرحمن بدوى (ص ٤٣٣) .

(٢) مونتجووىرى ، وات (Watt, M.)
عميد قسم الدراسات العربية فى جامعة أنبرا .
من آثاره : " اللغة العربية " من تاريخ الجزيرة العربية
عوامل انتشار الإسلام . محمد فى مكة .
انظر : المستشرقون (٢ / ١٣٢) .

(٣) محمد فى المدينة (ص ٥١٦) .

مناقشة شبهات المستشرقين :

بعد أن نظرت إلى شبهات المستشرقين التي سبق ذكرها رأيت أنها مختلفة في تحديد زمن الاهتمام بالإسناد والسؤال عنه، وهذا الاختلاف راجع إلى قول ابن سيرين " فلما وقعت الفتنة " . (١)

فالمستشرق روبسون رد ذلك إلى فتنة ابن الزبير سنة (٧٣ هـ)، والمستشرق شاخت رد ذلك إلى فتنة الوليد بن يزيد الخليفة الأموي (١٢٦ هـ)، (٢) فكلا القولين خطأ لأن هاتين الفتنتين كما سبق أن ذكرت أنهما لم تشتهر عند المؤرخين بلفظ الفتنة، وحيث أن هاتين الفتنتين لم يكن لهما تأثير على الحديث النبوي، لأن الأولى تختص بالحكم، والأخرى تختص بالسلوك الشخصي الذي كان يعيشه ذلك الخليفة .

إضافة إلى أنهما لو كانتا مؤثرتين على الحديث النبوي لاشتهر ذلك بين علماء الأمة وذكروه في كتبهم .

ولم يثبت أن وضع أحاديث لهاتين الفتنتين أبدا .

لكن لعدم فهم بعض المستشرقين لهذه اللفظة وعدم معرفتهم باللغة العربية أو لدوافع وأسباب أخرى أخطأوا الطريق .

فمثلا، المستشرق روبسون رد استعمال هذه اللفظة إشارة إلى فتنة ابن الزبير بناء على اعتماده على أثر ورد في موطأ الإمام مالك ذكر فيه لفظ الفتنة . (٣)

وهذا يدل على قصر فهم المستشرق حيث إن الإمام ابن سيرين تحدث بضمير الغائب، وهو يريد بذلك الصحابة الكرام فلو كان يريد فتنة

---

(١) انظر مقدمة الإمام مسلم (١ / ٨٨ — ٨٩) .

(٢) Robson, J.: The Isnad in Muslim Tradition, p.21-22.
Schacht, J.: The Origins, p. 136 - 137.

(٣) انظر الموطأ ، الحج ، باب ماجاء فيمن أحصر حديث رقم ٩٩

ابن الزبير لتحدث بضمير المتكلم،وهذا يدلنا على أن السؤال عن الإسناد لم يكن فى هذه الفترة وإنما كان فى الفتنة الأولى والثانية،وذلك استنادا إلى قول ابن سيرين (قالوا سموا لنا رجالكم)، فهو يقصد بكلامه هذا الصحابة الذين عاصروا الفتنة الأولى والثانية .

أما شاخت،فهو يرد استعمال الإسناد والسؤال عنه إلى القرن الثانى،بناء على اعتماده على تاريخ الطبرى الذى ذكر فى حوادث(١٢٦هـ) لفظ الفتنة وهو يريد أن يحكم على قول ابن سيرين بالموضع .

فقول شاخت لا نسلم به،لأنه استقى مقولته من إطلاق فى كتاب تاريخى،والمحدثون قد ذكروا قول الإمام ابن سيرين وتناقلوه وحكموا عليه بالصحة، وذكر الإمام مسلم فى مقدمته، وهذا مخالف لقول شاخت القائم على المجازفة والهوى ، وحيث إنه لم يذكرفى التاريخ الإسلامى أن عام (١٢٦ هـ) يعتبر نقطة تحول ونهاية الأيام القديمة الجميلة، وإذا كان هناك عصر يعتبره المسلمون بهذا الوصف فهو عصر الخلفاء الراشدين لا غير ".(١)

كما أن البروفسور روبسون ناقش شاخت أيضا فى فهمه للأيام الجميلة القديمة، واحتج بحديث" خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجىء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه " .(٢)

فيقول:إن هذا الحديث يدل على فساد الأمور بعد ثلاثة قرون، فيوافق معمر ابن سيرين وفتنة ابن الزبير " .(٣)

---

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٦٢) .

(٢) انظر دراسات فى الحديث النبوى (ص ٣٩٥) .

(٣) صحيح البخارى ك الشهادات (٥/ ١٩١) فتح البارى .

فهذه الأقوال الواردة عن بعض المستشرقين حول الفتنة التي أطلقها ابن سيرين حول الاهتمام بالإسناد والسؤال عنه خطأ،لأنها قائمة على المجازفة وعدم فهم اللغة العربية، حيث إن هذا الاهتمام بالإسناد لابد لنا على أن الصحابة والتابعين لم يستعملوا الإسناد في الحديث قبل الفتنة، بل كان بعضهم يسند ما يرويه تارة ولا يسنده في بعض الأحيان، كما دلنا على ذلك بعض الألفاظ الواردة عنهم مثل " رأيت ، سمعت، حدثني " وغيرها .

فبعض المستشرقين تجاهلوا هذا الأمر،وأرادوا أن يشككوا المسلمين في استعمال الصحابة للإسناد أو الاهتمام به،وذلك راجع إلى لفظة واحدة وهي لفظة الفتنة التي أخبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم،كما سبق أن ذكرته في بداية المبحث،ويقصد بها فتنة عثمان رضي الله عنه بالأخص والفتنة الأخرى التي تتبعها، خلافا لما يدعيه روبسون وشاخت في فهمهما لهذه اللفظة .

يقول د / محمد الأعظمي : " وإذا كان للمرء أن يفسر الأحداث تبعا لهوى في النفس ضاربا بكافة الحقائق التاريخية عرض الحائط فيمكن أن نفسر الفتنة بفتنة هولاكو أو التتار". (١)

ومما يدلنا أن السؤال عن الإسناد بدأ بعد فتنة عثمان وعلي ومعاوية رضي الله عنهم ما رواه طاووس:" فجعل بشير يحدثه فقال له ابن عباس : عد لحديث كذا وكذا فعاد له ثم حدثه ، فقال له : عد لحديث كذا وكذا فعاد له فقال له : ما أدري أعرفت حديثي كله وأنكرت هذا أم أنكرت حديثي كله وعرفت هذا ؟ .

---

(١) دراسات في الحديث النبوي (ص ٣٩٥) .

فقال له ابن عباس : " إنا كنا نحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لم يكذب عليه، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه ."(١)

ثم جاء عصر التابعين وأتباعهم فتشددوا في الإسناد والسؤال عنه والالتزام به، ويدل ذلك ما رواه ابن عبد البر عن الشعبي عن الربيع بن خثيم أنه قال : ... الحديث .

قال الشعبي حول هذا الحديث أفقلت للربيع بن خيثم من حدثك بهذا الحديث ؟ قال عمرو بن ميمون الأزدي فلقيت عمرو بن ميمون فقلت : من حدثك بهذا الحديث ؟ فقال : عبد الرحمن بن أبي ليلى فقلت من حدثك قال : أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم."(٢)

فهذان المثلان يدلان على وقوع السؤال عن الإسناد في وقت مبكر عكس ما يدعيه المستشرقون، حيث إن صغار الصحابة وكبار التابعين حافظوا على السنة سندا ومتنا لكي لا يدخل فيها ما ليس منها، وبهذا الاهتمام والعناية أصبح الإسناد أمرا بدهيا عند العامة والخاصة كما أن بعض النقاد كانوا يرسلون الحديث لأنهم على جانب كبير من العلم بالإسناد، وكانوا يؤدونه وقت الطلب واستعملوا الإرسال اختصارا للطالب " روى عن حماد بن سلمة أنه قال : " كنا نأتي قتادة فيقول بلغنا عن النبي صلى الله عليه وسلم وبلغنا عن علي، ولا يكاد يسند، فلما قدم حماد بن أبي سليمان البصري جعل يقول : حدثنا إبراهيم وفلان وفلان فبلغ قتادة ذلك، فجعل يقول سألت مطرفا ، سألت سعيد بن المسيب ، وحدثنا أنس ابن مالك فأخبر بالإسناد ولم يكونوا يسألونه عن السند ."(٣)

---

(١) مقدمة الإمام مسلم ، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء (١/ ٨١)
(٢) انظر الحدث الفاصل (ص ٢٥) .
(٣) طبقات ابن سعد القسم الثاني (٢/ ٧) .

وخلاصة القول :

إن الاهتمام بالإسناد والسؤال عنه زاد بعد فتنة عثمان وعلى ومعاوية رضي الله عنهم،حيث بدأ الوضع والافتراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخفاء وبصورة ضيقة، ويدل على ذلك موقف ابن عباس مع ابن أبى مليكة حول قضاء على وموقفه من بشير العدوى . (١)

وحيث إن بعض الصحابة كانوا فى تلك الفترة يعيشون فى أغلب الأمصار الإسلامية فلم يستطع هؤلاء المنحرفون أن يجاهروا بالكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن الصحابة كانوا لهم بالمرصاد .

إضافة إلى أن المراد بالفتنة الواردة فى كلام ابن سيرين قد اختلطت على بعض المستشرقين، فلم يفرقوا بين السابقة واللاحقة، عند ذلك اختلطت مزاعمهم حول الاهتمام بالإسناد والسؤال عنه،فبعضهم يؤخره نصف قرن والبعض الآخر يؤخره قرن ونصف تبعا لقصر فهمهم للغة العربية أوغيره من الأسباب .

ومن هذا كله أقول إن الاهتمام بالأسانيد والسؤال عنها زاد بعد استشهاد عثمان رضى الله عنه،واشتد بعد فتنة على ومعاوية عندما كثر التفرق من بعض الناس عن جادة الحق، عند ذلك قال الصحابة الكرام لمن حدثهم: سموا لنا رجالكم .